5 حكايات أندلسية للأطفال

أول طائرة في العالم

بقلم
دكتور حسين مؤنس
رسوم
عمرو أمين

دار الرشاد

طلب عباس بن فرناس من الأمير أن يسمح له بالعمل فى قطعة أرض يملكها الأمير قرب سفح (جبل العروس) المطل على قرطبة . وكان أعلى هذا الجبل هضبة واسعة مستوية السطح .

وكانت خطة عباس هى أن ينشئ عند قاعدة الجبل مصنعاً يعمل فيه مع عمال يدربهم ومعملاً يجرى تجاربه فيه .

وأعطاه الأمير مالاً وافراً فبنى المصنع والمعمل ، ووضع فيهما الأدوات اللازمة للعمل .. وفى ركن من المصنع كانت ورشة الحدادة .. وفى الركن الآخر ورشة النجارة وفى بقية القاعة الواسعة وضع دواليب ومناضد ، وأخذ

أربعةً من أذكياء الشبَّان ، وأربعةَ صبيان ليدرِّبهُمْ على العملِ وينشئهُمْ نشأةً علميةً .. وقدَّر لهُمُ الرواتبَ .. ووجدَ أنَّ أحسنَ ما يُشجِّعُ الإنسانَ على العملِ هوَ شعورُهُ بالراحةِ وإحساسُه بالأخوَّةِ مع مَنْ يعملُ معهُمْ ، فطلبَ إلى الزُّراعِ حولَ المَصْنعِ والمعْملِ أنْ يزرعُوا الخُضرَ والفواكهَ ، ويُربُّوا الغنمَ والبقرَ .. وأنشأَ مطعماً جميلاً يأخذُ كُلَّ حاجاته من الحقلِ المحيطِ به ، واستأجرَ طاهياً ومُساعديْه لإعدادِ الطَّعامِ لَهُ ولمُساعديه وعُمَّاله ..

فَيُبكِّرَ الواحدُ منهم بالمجيءِ إلى موقعِ العملِ ، ليُفطرَ إفطاراً شهيّاً .. ثُمَّ يتغدَّى بعْدَ صلاةِ الظُّهْرِ غداءً لذيذاً صحيّاً .. ويتعشَّى إذا شاءَ أنْ يعملَ إلى غُروبِ الشمْسِ ، وكُلُّ ذلكَ دُونَ مُقابلٍ .. بالإضافةِ إلى الرَّواتبِ والمكافآتِ ..

ووجدَ أن العُمَّالَ راغبونَ في السُّكْنى قُرْبَ موقعِ العملِ ، فبنى لَهُمْ بُيوتاً ريفيَّةً لطيفةً واسعةً .. وطلاهَا لهُمْ خارجاً وداخلاً باللَّوْنِ الأبيضِ على عادةِ الأندلُسيينَ .

أمَّا أسْطُحُ البُيوتِ فكانتْ مُحدَّبة (على شكلِ هَرميٍّ) مُغطَّاةً بالقرْميدِ الأحمرِ (حجارة صغيرة ذات شكل معين يكون لونها أحمر غامقًا) ، لأنَّ السماءَ تُمطرُ هُناكَ كثيراً .

ولَمْ يلبثْ هذا الموقعُ أنْ أصْبحَ قريةً صَغيرةً لَطيفةً مُنتجةً تُحيطُ بِهَا الحُقُولُ والحَدائقُ ، لأنَّ أهْلَ الأندلُسِ يُحبُّونَ البساتينَ والزّهُورَ والوُرودَ والأشجارَ .

وكانَ قلبُ عبَّاسٍ مشْغُولاً بفكرةِ الطَّيرانِ . كانَ مؤْمناً بأنَّ الإنسانَ يَستطيعُ أنْ يُحلِّقَ فى الجوِّ إذَا صنعَ الأداةَ التى يَطيرُ بِهَا على أساسٍ علْمى مَدْروسٍ .

لهذَا كانَ يُجرِّبُ فى المعْملِ أصنافَ الأخشَابِ ، ويَختبرُ صَلابَتهَا وقُوَّةَ تَحمُّلِها ، وكلَّفَ الحدَّادينَ بأنْ يُجرِّبوا صُنْعَ أعوادٍ منَ الحَديدِ مُختلفةِ السُّمْكِ وكذلكَ منَ النُّحاسِ .

وأنشأَ مَدْبغةً صَغيرةً لدبْغِ الجُلُودِ دباغةً مُتْقنةً تحتَفظُ لهَا بليونَتِها .. وتمكَّنَ منْ أنْ يخرُجَ منْ جلْدِ الغُزْلانِ والأرانبِ الكبيرةِ جِلْداً فى ليُونةِ الحَريرِ .

ولَمْ تلبثْ المصَانعُ أنْ أخرجَتْ أدوات جميلةً .. أقبلَ النَّاسُ علَى شرائِهَا .. منْهَا آنيَةٌ للطبْخِ منَ النُّحَاسِ مَطليَّة بالقَصْدير ، وصِحَافاً منَ الحديدِ الرقيقِ مَطليةً ..

وكذلكَ سَكاكينُ ومَلاعقُ ، لأن أهلَ الأندلُسِ ومعْظَم بلاَدِ العُروبَةِ عرفَتْ الملاعقَ والسَّكاكينَ ومَوائدَ الطَّعامِ وكَراسيَّه .. وكَانَ الأغنياءُ وكثير منَ الناسِ يأكلُونَ علَى الموائدِ وهُمْ جُلوسٌ علَى الكَراسي ..

ومنَ الخَطَأ أنْ نظُنَّ أنَّ العربَ عرفُوا هَذه الأشياءَ منَ الغَرْبِ ، إذْ إنَّ الحقيقَة أنَّ المصْريينَ القُدَمَاءَ عَرفُوا ذَلكَ كُلَّه . ومنَ المصريين أخذهَا اليُونَانُ والرُّومَانُ والعَربُ .

وكانَ عبَّاسٌ يضَعُ لكُلِّ عاملٍ خُطَّةَ عمله للشَّهْرِ والأُسبُوعِ واليْومِ ..

وينصرفُ هُوَ إلَى إعدَادِ

العُدَّة للطَّيران مع شَابٍّ وغُلامٍ ذكيين نَشيطَيْن اختارَهُمَا لمعاونته ، وعلَّمهُمَا الرِّياضَةَ والحسَابَ ودرَّسَ لهُمَا مَا هُمَا بحَاجة إليه منَ الطَّبيعَة والكيمْياء .. ثُمَّ أصبحَ الشَّابُّ مُعلِّماً واسعَ العِلْمِ . فأنشأَ له عبَّاسٌ فَصلاً لكى يُدرِّسَ فيه لمَنْ يُريدُ منَ الشُّبان والصِّبْيان الرِّيَاضيات والفيزيَاءَ والكيمْياءَ ، وكثُرَ عَددُ المتعلِّمينَ وصَارَ عبَّاسٌ يعملُ وكأنهُ فى مَعْهد ..

وكَانَ الأميرُ يتتبَّعُ ذَلكَ باهْتمَامٍ وإعجَابٍ ، وكانَ أكثر مَا زادَهُ إعجَاباً بعبَّاس أن مَدينَتَهُ الصَّغيرةَ تلكَ أصبحَتْ تُدرُّ مالاً وَافراً ، كانَ عبَّاسٌ يُسلِّمُه كُلَّ أسبوعٍ لِخَازِنِ الأمير ، أى الرجل المسْئول عَنِ الأمْوالِ فى القَصْرِ .

وأمَّا ثَانى مَا كانَ يُعجبُ الأميرَ فى عبَّاسٍ فهُوَ تديُّنُه وتُقَاهُ . فكَانَ يُصلِّي مَع جماعته الصَّلوات فِى أوقَاتهَا فى مُصَلَّىً لطيف بنَاهُ لهُمْ .. وكَانَ يَفْتتحُ عملَهُ بدرْسٍ فى القُرآنِ أو الحَديثِ أو مكَارمِ الأخْلاَقِ ، يُلقيه الفقيهُ

أو الإمامُ اللَّذَانِ اخْتارَهُمَا عبَّاس مِنْ أهْلِ الدِّينِ والفضْلِ والذَّكَاء وأصبحَا مِنْ أهْلِ المدينةِ .

وتمكَّنَ عبَّاسٌ فى النهَايةِ مِنْ صُنْعِ الطَّائِرةِ التى سَيطيرُ بهَا ، وكانتْ هيكلاً مِنْ أعوادِ الحَديدِ الرَّقيقةِ مُركَّبٌ بعضُها فى بعْضٍ .. فى هَيْئةِ مُثلَّثٍ مُنْفرجِ زَاويةِ الرَّأسِ جداً ، فيمتدّ يَميناً وشمالاً كأنه جَنَاحَانِ ثُمَّ طوَّرَ ذَلكَ فجعلَ كُلَّ جناحٍ مُقبَّباً لكَىْ يمتلئَ بالهَواءِ ، وبهذَا أصبحَ المثلَّثُ وكأنه طَائرٌ ذُو جَنَاحَيْن .. وصَنَعَ عَمُوداً رَقيقاً مِنَ الحَديدِ يَمْتدُّ مِنْ رأسِ المثلَّثِ إلى قَاعدتِه ، ويُثبَّتُ فيهَا تَثْبيتاً مُحكماً .. وجَعلَ مِنْ طَرَفِ الجَناحِ الأيمَنِ إلى طَرفِه الأيسرِ عموداً يُشبِهُه .. ويتقاطَعَانِ فى الوَسطِ ويُثبَّتُ أحدُهُمَا فى الآخرِ تثْبيتاً مُحكماً .. وفَى هَذَا العَمُودِ المسْتعرَضِ ثبَّتَ عُلاَّقةً مِنْ أعوادِ الحَديدِ غلَّفهَا بشبْهِ وِسَادَةٍ مُسْتديرةٍ من الجِلْدِ المبُطَّنِ بالقُطْنِ ليضعَ عليهِمَا

إبطيه ويحمل نفسه عند الطيران . ثم مدَّ سُلَّماً من الحبال لكى يقف عليه برجليه .

وكُلُّ ذلك صنعهُ عبَّاسٌ بعد تجارب طويلة وصبر لا يعرف الملل ، فلا يزالُ طُولَ اليوم يصنع ويجرب ويزن كُلَّ شئ بميزان دقيق صنعه ، ويقيسه بمسطرة معدنية صنعها .

وهداه تفكيره إلى أنَّ هذه الطَّائرة لن تحلِّق فى الجوِّ إلاَّ إذا جرى بها جرية سريعة .. حتَّى إذا وصل إلى حافَّة الهضبة قفز فى الهواء .. فحلَّق فى الجوِّ دقائق وجعل يهبطُ رُويداً رُويداً حتَّى يستقرَّ على الأرض استقراراً ليِّناً فلا يصطدم بالأرض بقُوَّة ..وبعد تجارب شاقَّة مُضنية

وتفكير طويل اهتدى إلى أنه لا بُدَّ أنْ

يستعين بحصان يركبه ويضع أحد إبطيه على الوسادة . ويمسك اللجام باليد الأخرى . ومساعدوه من حوله يحفظونه على الحصان ..

وعندما تشتد جرية الحصان يتركونه .. وعندما يقترب من حافة الهضبة يحس عباس أن الهواء يحمل الطائرة .. فيترك الحصان .. ويتكئ على الوسادة بإبطيه وينطلق في الجو .. تاركا الحصان الذي يعود .

ويحلق عباس في الجو .. ويضع رجليه على إحدى درجات سلم الحبال الذي يتدلى من الطائرة وما زال عباس يجرب شهرا بعد شهر . ويحسن طائرته ويجدد فيها حتى اهتدى إلى ضرورة مد العمود الطولي خارج المثلث . ووضع ثقلا في آخره ليقوم بمهمة الذيل .

وقد تعب عباس تعبا بالغا حتى أحكم وزن ذيل الطائرة .. ثم طوره وجعله كالدفة للسفينة وربط الدفة بحبلين وأمسك بطرفي حبلي الدفة بأصابعه فاستطاع بذلك أن يدور بالطائرة في الجو .. وتمكن في النهاية أن يحلق نحو نصف ساعة قبل أن ينزل على الأرض ..

وعندما اطمأنَّ عبَّاسٌ إلى نجاحِ اختراعِه ، ذهبَ وأبلغَ الأميرَ فطربَ للخبرِ ، واستوثقَ منْ صدقِ عبَّاسٍ ، فدعَا الأمراءَ والوزراءَ وكبارَ رجالِ الدَّولةِ وكبارَ الفقهاءِ وأهلِ العلمِ ، وأمرَ بأن يُصنعَ له صيوانٌ مكشُوفٌ يجلسُ فيه مع ضيُوفه وحاشيته .

وذاعَ الخبرُ فى قُرطُبةَ وتجمَّعَ النَّاسُ فى أعدادٍ غفيرةٍ وهُمْ لاَ يُصدِّقُونَ أنهُمْ سيرونَ إنساناً يُحلِّقُ فى الجوِّ .

وجعلَ بعضهُمْ يتندَّرُ بعبَّاسٍ ويَتنبأ بفشله .. وبعضُ الناسِ قَالُوا : إنه لاَ بُدَّ واقعٌ ، وربَّمَا انكسرَ فيه شَئٌ أو انتهَى أمرهُ بالموْتِ ..

ولَمْ يُصْغِ عبَّاسٌ إلَى هَذَا الكَلام ، فَهُوَ رجلُ عُلومٍ ورياضة وفيزْياء يعرفُ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِى الكوْنِ بِقَوانينَ . وأن الأعمارَ بيد الله .. ولَنْ يُصيبنَا إلا ما كتبَ الله لَنَا ..

ومَنْ طَلبَ العُلاَ والتقدُّمَ لا بُدَّ له مِنْ مُواجهة الأخطَار .

وَفِى اليَوْم الموْعُود ، وكَانَ يَوْمَ جُمعة .. أقبلَ الأميرُ مَع خَواصِّه ورِجَاله وجلسَ فى السُّرادِق ، وتجمَّعَ الناسُ فى أطراف السَّهْلِ الفَسيح .

وجرَّبَ عبَّاسٌ كُلَّ شَيْءٍ واسْتوثقَ منه فَوْقَ الهَضبة .. ثُمَّ هبطَ إلَى السَّهْلِ فَصلَّى الجُمعةَ مع الأمير ورِجَاله .. ثُمَّ صعدَ ، وتأكدَ مِنْ طَائرته . وَامْتطَى صَهْوةَ الحِصَانِ عندَ طَرف الهَضبة ، وأَمسكَ بالطَّائرة وجَعلَ الوسَادةَ تحْتَ إبطه وأمسكَ بلجَام الحِصَانِ ، ووقفَ به سَاكناً حتَّى اسْتوثقَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ثُمَّ انْطلقَ يَجْرِى والمسَاعِدُونَ حَوْلَه .. ثُمَّ تركُوهُ ..

وَعندمَا أحسَّ عبَّاسٌ أنَّ طَائرتَهُ ركبَتْ الجَوَّ .. ترك الحِصانَ .. وَحلَّق فَوقَ الوَادِى .. وَالعُيونُ تنظُر إليه مَبْهُورةً مِمَّا تَرَى .. وجَعلَ بعضُهم يَصيحُ : الله أكبرُ . الله أكبرُ . وَهلَّلت النِّسَاءُ .

وَوقفَ الأميرُ يتأمَّل مَزْهُوّاً بِرَبيبِه العَالِمِ الطيَّارِ .. فأخذَ عبَّاسٌ يدُورُ بالطَّائرة .. وهى تُحلِّقُ ثُمَّ بدأتْ تهبطُ رُوَيْداً رُوَيْداً بعد أنْ أكملَ فى الجَوِّ أكثرَ منْ نصف سَاعة .. ونَزلَ علَى الأرضِ فى هَوَادةٍ ولِينٍ .. وَتَزاحمَ النَّاسُ عَليه يُعانقُونَهُ ويدْعُونَ لَهُ ..

وَكانَ أكبر مَا أهمَّه سلامةُ طَائرته .. فَاسْتخلصَهَا منْ أيدِى النَّاسِ ومضَى بهَا إلى الأميرِ وَخلْفَهُ مُسَاعِدُوهُ فى نِظامٍ كَاملٍ .. وَعندمَا صَارَ بَيْنَ يَدَيْه قَالَ :

وَهذَا منْ فَضْلِ الله وفضلكَ أيها الأميرُ الجَليلُ .. لقدْ شَجَّعْتَ العِلْمَ والبحْثَ وأخذْتَ بِيَدِى فَبارَكَ الله لكَ فِيمَا فعلْتَ .

وأنا وطَائرتى وكُلُّ مَا

عملتُ وأعمَل ملكُكَ وفى خدْمتكَ .. وكانَ هَذَا اليَوْمُ

فى قُرْطبةَ عيداً .. وبَعْدَ الظُّهْرِ جمعَ الأميرُ وُزراءَهُ وقالَ لَهُمْ :

ـ هَـذَا الذى رَأيْتمُوهُ اليَـومَ نَصْـرٌ للأندلُسِ عَظِيـمٌ ، وَسَيُعَـزُّ بِـهِ

الإسلامُ إنْ شاءَ الله ، فهذه الطَّائرةُ سَنُدْخلها فى الجيش ، ونَسْتكثرُ منها ونُنشئُ فرقةً للطيرانِ .. لأنَّ هذه الطَّائرات إذَا اسْتمرَّتْ تتطورَّ وتتحسَّن ، استطاعَتْ أنْ تُحلِّقَ فوقَ مُدُنِ الأعداءِ وقلاعهمْ وحُصُونهمْ فى الجبَالِ .. وتأتينا بأخبارِهِمْ .. ومَنْ يدرى فربَّما اسْتطعْنَا أنْ نُطيِّرها فتهبطَ وراءَ خُطوطِ الأعداءِ فى اللَّيْلِ ويكْمُن طيَّارُوهَا حتَّى الصَّباحِ ، فيهاجِمُونَ العَدُوَّ مِنْ خَلْفٍ ..

وفى الليلِ نَادَى الأميرُ عبَّاسَ بنَ فِرْناسٍ وقال له :

ـ الآن عرفتُ قَدْرَكَ يا عباسُ .. لقدْ وصلْتَ اليوم إلى اخْتراعٍ عَظيمٍ وأريدُ منْكَ أنْ تَعتبِرَهُ سِرّاً مِنْ أسرارِ الدَّولةِ .. فَلاَ تكشِف دَقَائقَ اختراعِكَ هذَا إلى أحدٍ .. لأننا سَنَسْتعينُ بالطَّائراتِ فى الحُروبِ .. وقَدْ أمرْتُ رئيسَ الخَزَانةِ بأنْ يُعطيَكَ كُلَّ مَا تطلبُ مِنْ مَالٍ وعَوْنٍ .

وَفِى رأيى أنْ تَتحرَّزَ علَى مَدينة الطَّيران هَذه فَلاَ يدْخلُها غَريبٌ ، لأنَّ خُصُومَ بلاَدنَا كَثيرُونَ .. وعَليْكَ باليقَظة والجدِّ فى العَملِ .. وسَآتيكَ فى يَوْمٍ قَريب ، لتشْرحَ لِى سرَّ مَا صَنعْتَ جَزاكَ الله عَنِ الإسْلاَمِ والأندلُس خَيْراً وَمنَ اليوْمِ سَيطيرُ ذكرُنَا بأننَا أوَّلُ شَعْبٍ فى الدُّنْيا حلَّقَ فى الهَواء .. نحمدُ الله ألْفَ حَمْد ، ونُصلِّى على نبيهِ هَادينَا ومُعلِّمنا ، وأوَّل مَنْ حملَ إلَى البشرِ كلامَ الله فى العلْم والعُلَماء ..

وَسَخرَ الكَثيرُونَ منْ عبَّاسِ بنِ فرْنَاسٍ ، وبعضُ الشُّعراء قَالُوا شعْراً يَتندَّرُ به ، ولكنَّ عبَّاساً لَمْ يَكْترِثْ ، ومَضَى فى سَبيله يعملُ ويُجرِّبُ ويَخترِعُ .. وطوَّرَ طَائرتَهُ حتَّى أصبحَ يُحلِّقُ بهَا فى الجَوِّ ساعةً وبَعْضَ سَاعة ولَكنَّ القَدرَ أرادَ لَهُ شَيئاً آخَرَ هَذه المرَّةَ فوَقعَ وأصَابتْهُ رُضُوضٌ فى ظَهْره ، لَمْ يَلبَثْ أن بَرئَ منْهَا .. وكَانتْ سنُّه يَوْمَ حلَّقَ فى الجَوِّ ، اثْنتيْن وأربعينَ سنةً ، وتُوفِّىَ فَوْقَ السِّتينَ بقليلٍ .

الناشـــــر : **دار الرشـاد**
العنـــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقـم الإيـداع : ٥٦٠٤ / ٩٧
الترقيم الدولى : **3 - 48 - 5324 - 977**
تجهيزات وطبع : **عربية للطباعة والنشر**
العنـــــوان : ١٠٧ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــــع : **آرمس للكمبيوتر**
العنـــــوان : ٣٢ شارع عبد اللطيف مجلس الأمة
تليفـــــون : ٧٩٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م
الطبعة الثانية : ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م
الطبعة الثالثة : ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م